الخليج العربي ..... المجلد السابع عشر ..... العدد 3-1985/4
مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، الجمهورية العراقية

احلال النفوذ الاجنبي بالخليج العربي (دور الاسرة الصفوية*)

الاستاذ علي غنام

مقدمة :

لقد اورث الشاه عباس الاول، فيما اورث خلفاءه، تركة سياسية ذات اوجه ثلاثة : سلطة داخلية آخذة في التردي والتحلل، وحالة من العداء الشديد مع الجيران، وامتيازات اجنبية خاصة بالاوربيين، حتى قيل : «ان الشاه عباس بذر بعض البذور الاساسية للكارثة[1]»، وحتى قيل : « انه يجب ان يحمل، الى حدما، مسؤولية انحلال وتفسخ خلفائه منذ ان القى بهم، وبأوامر منه في قصر الحريم، بين المخصيين والنساء، لافي ميادين التدرب على الفروسية، كما كان ـ التدرب على الفروسية ـ عرفا ثابتا حتى غير من قبل ذلك العجوز المتعجرف[2]»، هذا الامر قد لايتبينه المرء على حقيقته الكاملة الا من خلال استعراض سيرة الشاه عباس نفسه والتركة التي خلفها

(*) عُدّل العنوان انسجاماً مع منحى التوسع في الموضوع.

(١) المصدر :

L. Lockhart: The Fall of The Safavi Dynasty And The Afghan Occupation of Persia, P.565, Cambridge University Press, 1958.

(٢) المصدر:

P. Sykes: A History of Persia, vol. II, p. 208, Third Edition, London: Macmillan And Co. Limited, 1930.

وراءه، وسيرة الملوك الاربعة الذين اعقبوه وورثوا عنه هذه التركة بأوجهها الثلاثة، ثم اضافوا اليها.

هذه التركة هي موضوع البحث الذي نوجزه على النحو التالي:

سام او الشاه صفي الاول
١٦٢٩ ـ ١٦٤٢

ترك الشاه عباس ـ اخر الملوك الصفويين الثلاثة البارزين ـ[١] الدولة الصفوية معلولة، حتى انه لم يجد في اسرته من ينصبه على عرشها سوى حفيده، سام ميرزا الذي نجا مما لقيه جده الاعلى[٢] ووالده واعمامه وابناؤ هم على يد جده عباس، ولربما لم تقدر له النجاة لولا انه غيب بين الحريم اتقاء لذاك المصير. ويبدو ان الشاه عباس قد صحا على المأساة وهو يحتضر، صحوة من مات ضميره ولم يعد لديه متسع لشيء سوى التعلق بالندم الذي غالبا ماينتاب ذوي «الذنوب» عند سكرات الموت ان اسعفهم الحال، املا في ان يشفع لهم بغفران او يستدر لهم شفقة ممن سمع او شهد حالة احتضارهم في الاقل. وهذا ماكان عليه حال عباس، فـ«بينما كان الشاه عباس يحتضر سئل عمن سيخلفه، فسمى هذا الامير، فأبلغ من قبل المنجمين بأنه اذا ماارتقى العرش سام ميرزا، فأن عهده سيكون قصيرا، فما كان من الشاه عباس الا ان رد على ذلك بقوله: هذه رغبتي، ان تضعوا على رأسه التاج الذي كان حقا لوالده التعيس[٣]» وعندها اتى بسام ميرزا من لدن الحريم قبل اعلان وفاة الشاه، ونصب ملكا وهو في السابعة عشرة من عمره، واتخذ الاسم الذي عرف به والده القتيل[*]، فأصبح الشاه الجديد يعرف باسم صفي (١٦٢٩ ـ ١٦٤٢). ويبدو ان الشاه الجديد

---

(١) بلغ عدد الملوك الصفويين من الناحية الاسمية خمسة عشر ملكا، اذا ماعد سلطان امير حمزة في عدادهم، غير ان تسعة منهم فقط يعدون في عداد من حكم فعلا واخرهم حسين الذي اجبر على التنازل اثر الغزو الافغاني عام ١٧٢٢، وبه انتهت الدولة الصفوية من الناحية الواقعية، اما الملوك الخمسة الذين اعقبوه فما هم الا مجرد دمى في ايدي المتنفذين الذين جعلوا من انفسهم اوصياء عليهم.

(٢) المقصود بالجد الاعلى الشاه محمد خدا بنده، والد عباس.

(٣) المصدر:
J. Malcolm: The History of persia From the Most Early Period to the Present Time, vol. I, P. 570

(*) الابن الاكبر للشاه عباس واسمه محمد باقر ميرزا، غير انه عرف باسم صفي ميرزا.

الذي ورث من جده الملك قد ورث ايضا ابرز خصلة فيه، الا وهي ميله الى الطغيان بوصفه عماد الملك! فالشاه صفي «كان طاغية قلب، اذ شهد كل عام من اعوام حكمه المشهد المروع والمقرف نفسه لاعماله البربرية والوحشية، فكل الامراء ذوي الدم الملكي وجميع الوزراء او كل اسرة رفيعة او شخصية كبيرة، كل هؤلاء إمّا أعدموا او سملت عيونهم بأمر منه. وان كشفا مروعا بأسماء ضحاياه قد انتفخ بعدد كبير من الاناث من بينهن سيدات من المرتبة الاولى في المملكة[٤]». وبينما كان يصطاد سمك السلمون المرقط في احد الايام، اصطاد خمسمائة منه، وسر بذلك، ولاسيما بوجود عدد من النبلاء من ذوي المرتبة الرفيعة الذين شاركوه في يوم تسليته، فخلع عليهم ملابس فخمة غير انه لسوء طالع هؤلاء النبلاء كان القمر في برج الاسد حينما تلقوا تلك اللفتات الرعوية! ونتيجة لهذا الحدث المشئوم، وبعد ايام قليلة منه، قتلوا جميعا من قبل الملك بمناسبة شجار تافه نجم عن حالة من السكر، الرذيلة السائدة التي رعاها الشاه صفي وفقا لمثله[٥]. ان هذا التفسير ماهو الا ذريعة تافهة اريد بها تأويل ماحدث بوصفه قضاءً وقدرا لاشأن للملك فيه! غير ان الامر ليس كذلك، فقد عزا الرحالة البارز «شاردان Chardin[*]» تلك الاعمال الوحشية التي اقترفها الشاه صفي الى طبيعة النظام البوليسي. كما ذكر ان الشاه صفي بقتله الرئيس العسكري للنبلاء، الذي كان من بين اولئك، يكون قد اتم مابدأه جده الشاه عباس الكبير، وكانت تلك رغبة الاثنين معا، ان يضعا الاسرى والعبيد في المناصب العليا من اجل تقليص دور الطبقة الارستقراطية والحط من قدرها وذلك لفسح المجال امام الملوك الفرس لممارسة سلطة مطلقة غير خاضعة لرقابة[٦]. كما وتجدر الاشارة ايضا الى ان «تافرنييه

---

(٤) المصدر:

J. Malcolm, op. cit., P.571.

(٥) المصدر:

J. Malcolm, op. cit, P. 573 - 574.

(*) جين او السيد جون شاردان (١٦٤٣ - ١٧١١)

Jean or Sir John Chardin: رحالة بارز ومثقف فرنسي وابن لجوهريّ زار فارس والهند مرتين: الاولى بدأت في عام ١٦٦٥ وانتهت بعودته الى فرنسا في سنة ١٦٧٠ وفيها تمتع برعاية الشاه عباس الثاني. والثانية بدأت في عام ١٦٧١ وانتهت بعودته الى فرنسا في سنة ١٦٧٧، وفيها اقام بفارس اربع سنوات في عهد سليمان. ثم استقر بلندن ومنح لقب فارس من قبل الملك الانكليزي شارلس الثاني. وتجدر الاشارة الى انه نشر في عام ١٦٧٠ قصة تتويج الشاه سليمان، ثم اكمل مؤلفه عن رحلاته في سنة ١٧١١ تحت عنوان: يوميات رحلة الفارس شاردان

Journal du Voyage du Chevalier Chardin

(٦) المصدر:

John Malcom, op. cit., p. 574 - 575.

Tavernier(*)» قد ذكر هو الاخر بأن الشاه عباس قد ترك امرا سريا اوصى فيه بقتل اشخاص معينين من الخانات الكبار(٧). والارجح ان ماذهب اليه الرحالتان صحيح، وهو لايتعارض مع الصحوة التي انتابت الشاه وهو يحتضر لان الوصية، كما يفترض، سابقة عليها. وقد عقب «مالكولم» على سيرة الشاه صفي بقوله: «ان كل دوافعه كانت من الطراز الاكثر خمسة. اما اعماله، فقد كانت دائما تعود اما الى غضبه او جشعه وبخله او هواه او حسده او مخاوفه(٨)». اذاً، فقلما يصفو مزاجه نظراً لكثرة علله، فبجانب ذلك «كان عنيفا ووحشيا ومتعطشا للدم»(٩) ومنغمسا في لذاته، ومعرضا عن شؤون دولته، ولذلك، فـ «قلما تدخل في شؤون الحكومة، حيث أمضى مجمل حياته، ان لم يكن كاملها، مع زجاجته وزوجاته وممارسة الصيد»(١٠). وبذا فقد علت الدولة الصفوية، على مافيها من علة، بارتقاء مراهق غر عاجز وطاغية قلب للعرش.

وقد اعقب اعتلاءه العرش قيام ثورات محلية، اما الحرير الذي عد في وقت من الاوقات، القضية الفارسية(٢)، فقد حلت بتجارته كارثة، حيث سلبت محلات الحرير الملكي من ناحية، وتبعثر ماينتج منه عبر تركيا وروسيا من ناحية ثانية، وانعدم المخزون منه من ناحية ثالثة. ان شاها كهذا فيه مما يغرى به جيرانه الشيء الكثير. ولذا نشبت الحروب من جديد، تلك الحروب التي غذتها حالة العداء الشديد

(*) رحالة فرنسي (١٦٠٥ - ١٦٨٩) استطلع كلا من: تركيا وفارس والهند، وقد صدر مؤلف عن رحلاته في خمسة كتب ضمت في مجلدين تحت عنوان: «الرحلات الست للسيد ج. ب. تافرنييه، في تركيا، وفارس، والهند: «Les Six Voyages, De Monsieur J.B. Tavernier, En Turquie, En Perse, Et Aux Indes».

(٧) المصدر:

John Malcolm, op. cit., p. 575.

(٨) المصدر:

John Malcolm, op. cit., p. 575.

(٩) المصدر:

L. Lockhart, op. cit., P.27.

(١٠) المصدر:

L. Lockhart, op. cit., P. 27

(٢) قال بيرسي سايكس: «ان القضية الفارسية، من وجهة النظر الانكليزية، كانت قضية الحرير». وتجدر الاشارة الى انه كان عماد التجارة الفارسية، وان تجارته كانت احتكارا ملكيا منذ عهد الشاه عباس. كما وتجدر الاشارة الى ان «هوبز» قد ذكر ان استهلاك اوربا من الحرير الفارسي الخام بلغ، في عام ١٦١٩، مليون رطل، وان تكلفة الرطل بلغت (٨) شلنات، في حين كان يباع في اوربا بـ (١٢) شلناً. والارجح ان ارباحه كانت تفوق ذلك. ونظرا لاهمية الحرير، فقد اطلق منذ القدم على الطريق البري الممتد من الصين الى الغرب والبالغ طوله نحو ٤٠٠٠ ميل، اطلق عليه اسم «طريق الحرير» Silk road or Silk route

المستكن تارة، والمتفجر تارات اخر، حتى غدت وبحق استمراراً لأبرز سمة في تاريخ فارس. وعليه، فقد اضيف الى الوجه الثاني من التركة، حالة العداء مع الجيران، مما اغرى جيران فارس بها، فما ان اعتلى صفي الاول العرش حتى غزا الآزبك خراسان الا انهم صدوا وألحقت بهم الهزيمة، غير ان قندهار فقدت اثر اخلاء الحاكم الفارسي لها عند وصول الازبك وتوجهه وحاميته الى دلهي واضعاً نفسه تحت تصرف الامبراطور المغولي. كما انتهز الاتراك بدورهم الفرصة، فتوجه جيشهم نحو الموصل، ثم دخل كردستان فهزم الجيش الفارسي، واستولى على همدان في سنة ١٦٣٠، في حين تعرض سكان العاصمة القديمة ميديا الى مذبحة، واستبيحت مدينتهم لستة ايام وقوضت فيها البنايات، ، بل وقطعت فيها الاشجار. وفي عام ١٦٣٥ استسلمت اريفان وفق شروط معينة، غير ان الشاه صفي افاد من عودة السلطان مراد الرابع(*) منتصرا الى القسطنطينية، فأستعاد اريفان في ربيع عام ١٦٣٦. وفي عام ١٦٣٨ استرجعت بغداد[١١]، بل ومعظم الاراضي العراقية المحتلة من قبل الفرس. وفي العام التالي توصل الطرفان الى معاهدة لتحديد الحدود بينهما استمدت بنودها من الوضع القائم انذاك، او بالاحرى استندت على الاسس التي انتزعها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) في ختام حروبه الثلاث ضد فارس، وذلك في اول صلح رسمي عقد بين الدولتين في سنة ١٥٥٥[١٢]، وبموجب المعاهدة الجديدة التي عرفت بمعاهدة زهاب اصبحت اريفان لفارس، وبغداد لتركيا والمناطق المجاورة للدولة العثمانية ايضا. وتجدر الاشارة ان معاهدة عام ١٦٣٩ عدت اساسا لما بعدها حتى القرن العشرين.

واخيراً أغرى تردي الشاه صفي عصابة قوقازية من جورجيا بشن غارة على الاراضي الفارسية، فحلت بـ «انزلي»، ثم نهبت «رشت» وذلك في عام ١٦٣٦.

(*) تزامن عهده (١٦٢٣ - ١٦٤٠) تقريبا مع عهد صفي الاول، كما التقى مع نظيره الفارسي في صفتين: ميله الى الطغيان حتى عد من اكثر السلاطين تعطشاً للدم، بجانب ادمانه الخمر الذي اودى بحياته، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، غير انه امتاز من نظيره الفارسي بأنه عد اخر السلاطين العثمانيين «الفاتحين»، بجانب ما اتسم به من شجاعة شخصية.

(١١) المصدر:

P. Sykes, op. cit., P.210 - 211.

(١٢) المصدر:

E. S. Creasy, The History of the Ottoman Turks, P. 256 - 267, London, Richard Bentley And Son, 1877.

لقد كان من الطبيعي ان ينتفع الاوربيون من الامرين معا: من الوضع الداخلي الآخذ في التردي، ومن الصراع مع الجيران، مما عزز الوجه الثالث من التركة، الامتيازات الاجنبية، فالشاه عباس الاول الذي انتهج سياسة ذات اوجه ثلاثة لاجتذاب الاوربيين الى فارس والخليج العربي، تلك التي تمثلت في: معاداته للدولة العثمانية، ومنحه الامتيازات للاوربيين، وتظاهره بالتعاطف مع المسيحيين والمسيحية، قد ترك ارثا تعهده خلفاؤه من بعده.

ففيما يتعلق بالامرين الاخيرين او بالاحرى بمجمل العلائق مع الاوربيين قال كرزون: «ان الرعاية والاعتبار اللذين لقيهما الاجانب، وحرية العمل، التي سمح بها للدين المسيحي من قبل الشاه عباس ذي العقلية المتحررة وخلفاؤه من بعده، امور يضرب بها المثل، تمثلت في القوانين والكنائس التي منحت للجماعات الرهبانية الاوربية الرئيسية، فالاغسطينيون والكرمليون والكبوشيون منحوا اماكن منفصلة تخص العرش بأصفهان، في حين كان لليسوعيين والدومينيكانيين اديرة في جلفا»[١٣]. وتجدر الاشارة الى ان «تافرنييه» الجوهري، والرحالة الفرنسي الذي عاصر الشاه عباس الثاني، قد عقب على نشاطات تلك الجماعات قائلا: «ان عدد الوعاظ الدينيين اكبر بكثير من عدد المستمعين لمواعظهم في كل من اصفهان وجلفا اجمالا. واذا ماوضعنا جانبا الافرنجة الذين اتوا من اوربا او ولدوا في فارس، سواء كانوا رجالا ام نساء، فأن عدد من اعتنقوا المذهب الكاثوليكي لم يبلغ ستمائة شخص[١٤]». وبذا، فان خلفاء الشاه عباس الاول قد ساروا على نهجه في خطب ود الاوربيين واجتذابهم للاسباب القديمة نفسها، ولما استجد عليها من اسباب لاحقة ايضا.

وبشأن الامر نفسه يقول مالكولم: «ان السياسة التحررية لعباس الكبير قد اجتذبت كثيرا من الاوربيين الى بلاده، فقد منح تشجيعا متساويا لكل الفئات. وقبل وفاته كان في فارس مبعوثون سياسيون وجنود (عسكريون) وتجار وبعثات تبشيرية من كل بلد في العالم المسيحي تقريبا. ان الاسباب التي دعت الى هذا التشجيع تعود الى حسده للاتراك وكرهه لهم، ورغبته في تحسين وسائله العسكرية وتنمية التجارة في

---

(١٣) المصدر:

G.N. Curzon, Persia and The persian Question, vol. II, P.23 - 24, London, Longmans Green And Co., 1892.

(١٤) المصدر:

G. N. Curzon, op. cit., P.24.

بلاده ونزعته الى التسامح الديني. لقد استمرت هذه الدوافع تفعل فعلها بعد وفاة هذا العاهل حتى ان أكثر المنحطين والقساة من خلفائه كانوا لطفاء وكرماء مع الاوربيين في بلادهم. ونتيجة لذلك تدفقت الى فارس اعداد من الاوربيين وكان من بين هؤلاء بعض الرجال البارزين الذين قدموا من اجل العلم والمعرفة»[١٥]. ان الدوافع الاربعة التي اوردها مالكولم تتمحور حول دافع واحد، الا وهو الصراع مع الاتراك خاصة والجيران عموما ومايتصل بهما من اطماع، وفات مالكولم ان يشير الى دافعين اسهما في تجديد تلك الامتيازات: اولهما، الأوضاع الداخلية وأثر ضعفها على ذلك. وثانيهما، الرشوة التي اصبحت منذ ذلك الوقت وسيلة لايستهان بها لكسب ود الملوك الصفويين الذين اعقبوا الشاه عباس واعوانهم.

اما القول الذي كثيرا ماتردد في المصادر البريطانية بمناسبة تجديد الامتيازات الاجنبية، وبخاصة على اثر وفاة الشاه عباس الاول من انه «بوفاة الشاه في فارس تصبح كل الاتفاقيات او الامتيازات ملغاة مالم تؤكد من قبل خليفته[١٦]»، فصحيح من حيث الشكل، اما من حيث المضمون، فلم يقدم احد قط من خلفاء الشاه على الغاء الامتيازات الاجنبية او الحد منها، بل تعهدوها حتى ان السيد «جورج كرزون G. Curzon» قد استهل نبذته عن التجارة البريطانية في فارس بقوله: «لقد حصل على المراسيم (الامتيازات) من قبل جميع الملوك المتعاقبين، مصدقة ممددة او ملطفة لشروط الامتيازات السابقة»[١٧].

وهكذا لم يحصل ان تنكر احد من الملوك الصفويين لتلك الامتيازات، ولذا درجت العادة ان تجدد وبيسر، فـ «تجديد فرمان(*) الشاه عباس لعام ١٦١٧ قد حُصل عليه من قبل الشاه صفي دون عناء يذكر، وذلك في شهر تموز أو اغسطس من سنة

---

(١٥) المصدر:

J. Malcolm, op. cit., P. 569 - 570.

(١٦) راجع:

1) J. Bruce, Annals of the Honorable East India Company, P.302, vol. I London, 1810.

2) J. G. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf Oman, and Central Arabia, vol. 1, part 1A, P. 35. Calcutta, 1915.

3) A. T. Wilson, The Persian Gulf, P. 162, The Third Impression, 1959.

(١٧) المصدر:

G. N. Curzon, op. cit., P. 551.

(*) فرمان: محص فارسي، ومعناه امر او حكم يصدر عن شخص عظيم، ويسمى ايضا برمان، وشاعت ترجمته بـ «مرسوم». وقد ورد في المصادر الاجنبية بصيغتين: Farman و Phirmaund

١٦٢٩(*) ، غير ان ذلك لم يتم الا بتعهد من قبل وكلاء الشركة بأنهم سيأخذون من الشاه سنويا ماقيمته عشرون الف تومان من الحرير، على ان يدفعوا ثلث المبلغ عنه نقداً، ولضمان التقيد بالفرمان بعد صدوره وجدت الشركة، علاوة على ذلك، انه من الضروري دفع نحو ١٥٠٠ جنيه استرليني في السنة على هيئة هدايا للشاه وحاشيته[١٨]». وقد عقب «بروس» على تلك الهدايا بقوله: «غير ان هذه الامتيازات يمكن فقط ان تصير ذات جدوى بمنح الملك وكبار موظفيه هدايا سنوية من الاقمشة الفاخرة والأدوات الممتازة للمائدة، بما قيمته خمسمائة تومان او مايربو على الف وخمسمائة جنيه استرليني [١٩]»، في حين يضيف «ويلسون» بعد ذكره للاقمشة والسكاكين عبارة (وماشاكلها)[٢٠]. وعليه، فقد ارتفع شأن مثل هذه «الهدايا» او بالاحرى الرشاوى حتى ان الانكليز ـ الذين كثيراً مااتهموا الهولنديين باللجوء الى المكائد والرشاوى لتسيير شؤونهم، وماعهد عنهم ايضا من بخل وتقتير ـ دأبو في ادخالها ضمن عدتهم بعد ان اسبغوا عليها تسمية غير تسميتها. بل ووسع الاوربيون من اللجوء اليها، بحيث لم تعد وقفا على الملك وحاشيته، وانما تجاوزت ذلك. ففي عام ١٦٣٠ نجح مبعوث برتغالي في استمالة حاكم فارس عن طريق الرشوة[٢١]. وكان الهولنديون بدورهم منهمكين في تقديم الرشاوى للمسؤولين الفرس[٢٢]، او مسرفين جدا في رشاويهم للملك وموظفيه على حد تعبير بروس. وعندما قام وكلاء الشركة الانكليزية في عام ١٦٣٩ بجولة في عدد من الاقاليم الفارسية للحصول على الحرير «اضطروا الى تقديم هدايا ضخمة الى عدد من الوكلاء الفرس[٢٣]».

(*) ذكر كل من: بروس (المصدر السابق، ص ٣١٠) وويلسون (المصدر السابق ص ١٦٢، ١٦٣) ان المصادقة قد تمت في سنة ١٦٣٢.

(١٨) المصدر:

J.G. Lorimer, op. cit., p. 35.

(١٩) المصدر:

J. Bruce, op. cit., 310

(٢٠) المصدر:

A.T. Wilson, op. cit., P. 162. 163.

(٢١) المصدر:

J.G. Lorimer, op. cir., p. 37.

(٢٢) المصدر:

J.G. Lorimer, op. cit., p.43.

(٢٣) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p.359.

وفي الفترة الواقعة بين (١٦٤١ ـ ١٦٤٢)، اي قبيل وفاة الشاه صفي عدت «الهدايا» واحدة من مشكلات ثلاث ناءت تحت وطأتها وكالة الشركة الانكليزية ببندر عباس مما زاد نفقاتها عن ارباحها، فبجانب عدم انتظام السوق، وصعوبة سداد الديون، كانت الهدايا المقدمة للملك للحصول على مراسيم عن كل امر ثانوي تشكل عبءاً دائماً[٢٤]، في حين وصف «لوريمر» الوضع انذاك على النحو التالي« لقد كسدت التجارة في عام ١٦٤١، نظرا لتقلب الاسواق، والديون المعلقة التي لم يكن من اليسير استردادها، والهدايا التي كان يطلبها الشاه مقابل كل مرسوم تافه مما شكل اعتداءً خطيراً على أرباح الشركة[٢٥]». ويلاحظ هنا حصول تطورين بشأن الهدايا: اولهما، ان الهدايا في عهد الشاه عباس تكاد تكون مقتصرة عليه(*)، بينما تجاوزت الان الملك الى حاشيته وكبار موظفيه. وثانيهما، ان الهدايا كانت تقدم، في حين اصبحت تطلب، بل انها اشترطت من قبل الشاه صفي[٢٦].

ان شيوع هذه الوسيلة جاء متسقاً مع اعراض الانحطاط الاخرى التي اخذت تنخر في كيان الدولة الصفوية.

والخلاصة ان عهد الشاه صفي قد شهد، فيما شهد، على صعيد الاوربيين وامتيازاتهم مايلي: ـ

اولاً ـ ان تجارة الشركة الانكليزية قد حصلت على دعم اضافي من قبل الشاه الجديد من خلال:

(١)مصادقته على جميع امتيازاتها القديمة.

(٢) موافقته في اكثر من مناسبة على مراسيم وعقود جديدة ـ ذات طابع اجرائي

---

(٢٤) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p. 384.

(٢٥) المصدر:

J. G. Lorimer op. cit., P. 44.

(*) اورد (بروس) مناسبات عدة قدم او اقترح فيها تقديم هدايا للشاه عباس دون ان يقرن احد به، وذلك في مجلده الاول (ص: ١٨٤، ١٩٩، ٢٠٧، ٢١٥، ٢٤٤). غير انه اشار في مناسبة لاحقة الى الشاه وقد قرن بموظف نافذ قوي عندما نقل عن وكيل رئيسي بسورات تحذيره من مغبة تدهور تجارة الشركة مالم يبعث مندوب ذو مرتبة برسائل وهدايا ضخمة للشاه وموظف نافذ وقوي. كما اورد اشارة اخرى لشخص منفرد ـ دون ان يذكر الشاه ـ عندما قال: ان هذا الحدث اقنع الوكلاء بأصفهان ـ ١٦٢٧ ـ بتوجيه رسالة الى الملك وتقديم هدية ضخمة لموظف كبير نافذ (ص: ٢٧٤ ـ ٢٧٥). ويلاحظ ان هاتين الواقعتين (١٦٢٥ ـ ١٦٢٧) قد حدثتا في اواخر عهد الشاه عباس الاول.

(٢٦) المصدر:

G. Curzon, op. cit., P. 55.

او تكميلي ـ تتعلق بمسألتين[٢٧]: حصة الانكليز من الحرير، ونصيبهم من الرسوم الجمركية ببندر عباس، ذلك النصيب الذي تحول الى مشكلة دائمة بين الطرفين[*].

(٣)مؤازرته لطلب تقدمت به الشركة في مطلع عهده يرمي الى تأمين حماية وكالتها في كمبرون (بندر عباس)، عندما ارسل الشاه الجديد مئتين من الجنود الفرس الى كمبرون لحماية الوكالة الانكليزية والتصدي لأي هجوم برتغالي محتمل[٢٨].

(٤)معارضته لمقترحات خصومها الهولنديين[٢٩].

ثانيا ـ ان الشاه الجديد لم يغير من الامتيازات التي حصل عليها الهولنديون، وبخاصة امتياز حصولهم، من الشاه عباس في سنة ١٦٢٧، على نسبة من تجارة الحرير بشروط اكثر ملاءمة من تلك التي منحت للانكليز، ذلك الامتياز المغتصب من وجهة النظر الانكليزية[٢]، نظرا لان الهولنديين استغلوا انشغال الشاه عباس في الدفاع عن بغداد ضد الاتراك، وحالة الاضطراب التي انتابت شؤون فارس الداخلية، فحصلوا عليه[٣٠]. كما صعّد الهولنديون بدورهم من منافستهم

---

(٢٧) راجع :-

1) J. Bruce, op. cit., p. 302, 303, 321, 342, 358 - 359, 367

2) J. Lorimer, op. cit., p. 42 - 44.

(*) اشترط الانكليز، فيما اشترطوا، على الشاه عباس الاول حصولهم على نصف الرسوم الجمركية لميناء هرمز لقاء مشاركتهم في طرد البرتغاليين سنة ١٦٢٢، ولان هرمز قد قوضت تماما برغبة من الشاه اساسا، ولما لحقها ايضا من دمار اثناء الاستيلاء عليها، فقد احتفظ الانكليز بحقهم في الميناء البديل، ميناء بندر عباس، وسارت الامور رخاء لسنوات. ثم نشأت مشكلة بين الطرفين حول امرين: الايفاء والمقدار، فالانكليز يتهمون السلطات الفارسية بالتلكؤ في الدفع، وان دفعت ايضا، فهي لاتدفع نصيبهم كاملا، والذي قدروه بما يزيد سنويا عن خمسة عشر الف جنيه استرليني. وفي وقت لاحق دخل طرف ثالث في النزاع، وذلك عندما رفض الهولنديون دفع رسوم جمركية ببندر عباس لان الشاه عباس الاول قد اعفاهم من ذلك، مما اثار حفيظة الانكليز على الهولنديين. وقد ظلت هذه المسألة بين مدّ وجزر حتى سويّت عام ١٦٧٦، وعندها استبدل مبدأ المناصفة بمبلغ قدره الف تومان تعهدت فارس بدفعه سنويا للانكليز. (راجع: بروس، المصدر السابق ص ٤٢٩، ولورمر، المصدر السابق ص ٣٦، وويلسون المصدر السابق ص ١٦٢).

(٢٨) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p. 302 - 303.

(٢٩) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p. 314.

(٢) سبق لـ «بيرسي سايكس» ان وصف، بدوره، المرسوم الذي حصل عليه الهولنديون من الشاه عباس، في عام ١٦٢٣، وما تلاه من افتتاح وكالة لهم ببندر عباس، وصفه بـ «المرسوم الذي لامفر منه».

(٣٠) المصدر:

A. T. Wilson, op. cit., P. 162.

للانكليز في وقت كان يعتقد فيه ان الطرفين تجمعهما قضية مشتركة ضد البرتغاليين، فكلاهما يريد الخلاص من البرتغاليين، وكلاهما ينتمي الى مذهب واحد، المذهب البروتستانتي، في حين ينتمي البرتغاليون الى المذهب الكاثوليكي، غير انه فات من كان يعتقد بذلك ان المصالح اقوى من تلك الانتماءات، وان «الحلفاء»، وبخاصة المستعمرين منهم ينطبق عليهم ماينطبق غالبا على اللصوص بعد ان تصبح السرقة بين ايديهم. وعليه «يجب ان نلاحظ ان اختفاء البرتغاليين من الميدان لم يحرر الانكليز في الخليج(الفارسي)من المنافسة السياسية والتجارية، فبينما أفلت قوة البرتغاليين ازدادت وبسرعة قوة الهولنديين واصبحوا خطرين[٣١]». هذه المنافسة التي بدأت بينهم بالخليج منذ ان اصبح الطرفان وريثين للتركة البرتغالية، ومتجاورين ببندر عباس، ثم مالبثت ان اشتدت حتى حقق فيها الهولنديون تفوقا واضحا على الانكليز بحلول ١٦٣٩ - ١٦٤٠[٣٢]. وقد اتهم الانكليز الهولنديين في فارس باللجوء الى: المكائد، والرشاوى، والامتناع عن دفع الرسوم الجمركية ببندر عباس، ودفع اثمان مرتفعة للسلع الفارسية، وبيع السلع الاوربية بأثمان منخفضة تقل عن تكاليفها، بجانب «وجود خونة في المعسكر الانكليزي[٣٣]». وقد «واظب الهولنديون على الكفاح لازاحة الانكليز من الموقع الذي كسبوه بكثير من الالم[٣٤]»، حتى ان الوكالات الانكليزية لم تغامر في عام ١٦٣٣ بمجرد رفع طلب لعقد صفقة حرير جديدة مع الشاه الجديد خشية ان يزايد عليهم الهولنديون، الا ان طرقهم في المضاربة افضت الى تراكم الديون عليهم لصالح التجار الارمن بفارس حتى تجاوزت مئة الف استرليني، كما فشلوا في تخفيضها عند نهاية الموسم (١٦٣٧) الى ماهو اقل من خمسة وستين الف استرليني. وفي عام ١٦٣٨ كانت تجارة التوابل كلها بأيديهم، بل وحصلوا على اعفاء من رسوم الاستيراد،

---

(٣١) راجع:

1) J. G. Lorimer, op. cit., p. 40.
2) A. T. Wilson, op. cit., p. 161.

(٣٢) المصدر:

A. T. Wilson, op. cit., P. 163.

(٣٣) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., P. 40

(٣٤) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., P.40

بينما اصبحوا متفوقين ببندر عباس بحلول (١٦٣٩ ـ ١٦٤٠) وذلك من حيث الشحن (نقل) والمخزون السلعي[٣٥]. بجانب بروز منافسة اتحاد «كورتن»[*] الانكليزي لشركة الهند الشرقية، تلك الجماعة التي قامت بمنافسة شديدة من اجل تجارة الخليج بدءاً من عام ١٦٤١، حتى انها بذلت جهودا لبذر الشكوك في اوساط الحكومة الفارسية حول موقف ملك انكلترا من شركة الهند الشرقية[٣٦]. ولمواجهة هذه التطورات، وبخاصة المنافسة الهولندية منها، تحرك الانكليز على اكثر من صعيد، في عهد الشاه صفي، واتخذوا مواقف واجراءات قد تبدو اذا ماأخذت بمعزل عن بعضها وكأنها شتات لاناظم له غير انها كانت، فيما نعتقد، خطوات متسقة تمثلت في: ـ

(١) العمل على عزل الهولنديين، ففي محاولة من الانكليز لقطع الطريق على الهولنديين للتحالف مع البرتغاليين من جهة، ولتحسين اوضاع تجارتهم من جهة ثانية، والتفرغ للمنافسة الهولندية من جهة ثالثة، سعوا الى تسوية خلافاتهم مع البرتغاليين، ووضع حد لحالة العداء القائمة بينهم حينذاك. وقد توصل كل من رئيس الوكالة الانكليزية بـ «سورات» ونائب الملك البرتغالي بـ «كوا» الى عقد هدنة بين الطرفين، وتلى ذلك تبادل المذكرات الايضاحية بين العرشين الانكليزي والاسباني. وفي عام ١٦٣٥ صدرت تعليمات الى موظفي الشركة بفارس تطلب منهم البقاء على الحياد في النزاع بين الفرس والبرتغاليين. وفي العشرين من كانون الثاني لعام ١٦٣٦ استبدلت الهدنة باتفاقية وقعت بـ «كوا» من قبل كل من الرئيس الانكليزي للوكالة بـ «سورات» ونائب الملك البرتغالي بـ «كوا» واتخذت المعاهدة المعقودة بين انكلترا واسبانيا، في الخامس عشر من تشرين الثاني لعام ١٦٣٠، أساساً للاتفاقية الجديدة، وعليه اعيد توطيد الصداقة بين

---

(٣٥) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., P. 40

(*) اتحاد كورتن(Courten's Association) نسبة الى السيد: Sir William Courten or Courteen مالك سفن وتاجر انكليزي، وابن للاجيء برتغالي، نال لقب «فارس» عام ١٦٢٢، واسس هذه الجماعة، في عام ١٦٣٥، التي توصلت، فيما بعد، الى اتفاق مع شركة الهند الشرقية الانكليزية في نهاية عام ١٦٤٩، وغدت تعرف بـ: The Assada Merchants»

(٣٦) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., p. 42

الطرفين[٣٧].

وتجدر الاشارة الى ان الهولنديين قد سعوا فعلا للتحالف مع البرتغاليين لتدمير التجارة الانكليزية وذلك اثر اعلان كرومل الحرب ضدهم في سنة ١٦٥٢، غير ان البرتغاليين رفضوا التعاون معهم،[٣٨] بالرغم من ان الهولنديين قد افلحوا بدورهم في توقيع معاهدة مع البرتغاليين، وذلك في الاول من تشرين الثاني عام ١٦٤٤، تلك المعاهدة التي صودق عليها من قبل الحاكم العام الهولندي بالهند الشرقية، ونائب الملك البرتغالي بـ «كوا» والتي كان الغرض منها الحد من صراعهما واقتسام «المصالح» بينهما.

(٢)التطلع الى ممارسة ضغط على هولندا في اوربا نفسها للحد من نفوذ الهولنديين في الشرق.

(٣)التمسك بـ «مصالحهم» في فارس والخليج والسعي لتذليل العقبات التي تعترضها، ومن ذلك مثلا[٣٩]: ـ

(أ)امرت الشركة بلندن موظفيها في الهند، في ١٦٣٥ بأن يحصلوا على الفلفل والبهارات الفاخرة من اجل تنشيط التجارة بفارس وتحسينها في الهند.

(ب)قام الرئيس الجديد لوكالة سورات، في كانون الاول من سنة ١٦٣٦، بزيارة الى بندر عباس ووضع تنظيمات جديدة لمعالجة الموقف انذاك، ويبدو أن الشركة قد افادت منها. وفي العام نفسه بعث الملك شارلس الاول برسائل الى الشاه صفي طالبا حمايته للانكليز وتحسين العلائق التجارية بين البلدين.

(جـ)بعث الملك شارلس الاول، في عام ١٦٣٨، برسالة الى الشاه صفي مطالبا اياه بوضع العلائق التجارية على اساس أفضل، ومرفقا بها صوراً للعائلة الملكية. وقد عقب لوريمر على ذلك بقوله: «وبهذه الوسائل ـ الرسالة والصور ـ تم الحصول على عقد جديد بشأن الحرير وعلى مرسوم لاسترداد ديون الشركة

---

(٣٧) راجع: ـ

1) Bruce, op. cit., p. 325, 333 - 334.

2) J. G. Lorimer, op. cit., p. 38.

(٣٨) المصدر:

A. T. Wilson, op. cit ., p. 165

(٣٩) راجع: ـ

1) J. Bruce, op. cit., p: 332, 351 - 352, 358 - 359.

2) J. Lorimer, op. cit., p. 43 - 44.

المستحقة بموجب عقد قديم[٤٠]».

(د)بدا جليا، في عام ١٦٣٠، ان الشركة كانت ترغب في اغلاق وكالتها بأصفهان والتركيز على اعمالها ببندر عباس، غير انها عدلت عن ذلك، واحتفظت بوكالتها في اصفهان.

وهكذا نرى ان الانكليز ظلوا متمسكين بفارس نظرا لاهمية موقعها وموقع الخليج العربي، حتى ان التجارة الانكليزية التي وصفها «لوريمر» بالكساد في عام ١٦٤١ «شكل الحرير الفارسي فيها نصف الحمولة المرسلة من سورات الى اوربا.

بالاضافة الى ان فارس اثبتت انها اعظم الاسواق الاسيوية نفعاً لبيع السلع الانكليزية. كما ان تجارة فارس لها قيمة عرضية، فالسفن التي تنتظر حمولتها بـ «سورات» او على ساحل «كورمندل» لتتجه الى اوربا كانت قادرة على حمل السلع الهندية والتجار الى الخليج والعودة منه محققة بذلك أمرين: حمولة وارتياح محلي[٤١]».

(٤)التفتيش عن منفذ اخر في الخليج العربي، ففي عام ١٦٣٥ قام الانكليز بمحاولة تجريبية للتعرف على البصرة وامكاناتها عندما أرسلوا مركباً شراعياً من صنع محلي محملاً ببضاعة متواضعة، وبعد نحو ست سنوات جرت محاولة اخرى، وذلك عندما قررت رئاسة الشركة بسورات ان توفد وكيلين الى البصرة في رحلة تجريبية قصد منها معرفة ما اذا كان بالامكان المتاجرة في الخليج عبر ميناء غير خاضع للعرش الفارسي، وربما يكون ايضا اكثر ملاءمة لمواجهة الهولنديين من ناحية، واتحاد كورتن من ناحية اخرى. وفي ٣١ من ايار لعام ١٦٤٠ وصل الوكيلان الى البصرة وحصلا على اذن من الباشا بانزال البضائع التي كانت بحوزتهما وبشروط اكثر ملاءمة من أي شروط منحت لامة اوربية اخرى[٤٢]. وأخيراً، آلت هذه المساعي الى افتتاح وكالة مؤقتة لشركة الهند الشرقية بالبصرة وذلك في سنة

---

(٤٠) المصدر

J.G. Lorimer, op. cit., P. 44.

(٤١) المصدر:

The New Cambridge Modern History, vol. IV p. 662, Cambridge at the University Press 1970.

(٤٢) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p. 376.

١٦٤٣، ان لم يكن قبلها وفق رواية لـ «لوريمر»[٤٣].

اما البرتغاليون، فقد احتفظوا، في عهد الشاه صفي، بموقعهم في «كنج Kung» على الساحل الشرقي من الخليج العربي، وبمواقعهم على الساحل العماني. وعلى اثر محاولة غير ناجحة قاموا بها، في عام ١٦٣٠، لاعتراض سبيل اسطول انكليزي متجها نحو سورات، على اثر ذلك، حول نائب الملك البرتغالي اهتمامه الى الخليج فأوفد مبعوثا برتغاليا محملا بتعليمات من الملك الاسباني تخوله اللجوء الى الرشوة، وقد نجح هذا المبعوث في استمالة حاكم اقليم فارس، ومن خلال الاخير قدم طلباالى الشاه بإعادة هرمز الى البرتغاليين! وتقديم امتيازات معينة جديدة لتجارتهم في كنج او تأكيد امتيازاتهم القديمة فيها[٤٤]. وماكان للبرتغاليين ان يتقدموا بطلب كهذا لولا معرفتهم بالظروف التي كانت تمر بها فارس انذاك. ويبدو أن احباط المسعى البرتغالي ماكان ليتم لولا تدخل الانكليز الذين اوجسوا خيفة من عودة البرتغاليين اذ يقول لوريمر: «في وقت من الاوقات سادت الخشية من أن النفوذ البرتغالي يوشك ان يكسف نظيره الانكليزي، غير ان وكلاء شركة الهند الشرقية مازالوا قادرين على استحصال امر من الشاه الجديد بتسيير مئتي جندي فارسي الى بندر عباس للدفاع عن الوكالة والسفن الانكليزية ضد هجوم برتغالي محتمل. وأخيراً أصيب البرتغاليون بخيبة امل من قبل الفرس وعادوا الى خططهم في الاستيلاء على هرمز عن طريق القوة[٤٥]». ويبدو ان الطلب الفارسي الذي قدم للانكليز للحصول على سفن تساعدهم في حملة منتظرة ضد البرتغاليين في مسقط كان مبعثه الخشية من محاولة برتغالية جديدة لغزو هرمز.

وأخيراً، تجدر الاشارة الى ان عهد صفي قد شهد في عام ١٦٣٧ سفارة من مقاطعة «هولستاين Holstein»[*] ذات المصانع الحريرية المهمة، وذلك عندما بعث دوقها بتاجر من همبورغ، عبر روسيا، الى فارس، وبعد ان توصل الى اتفاقيات غير مؤاتية مع الدوق المسكوفي للمرور الحر، وحل بفارس وجد ان تكاليف النقل والرسوم الجمركية

---

(٤٣) راجع:

1) A.T. Wilson, op. cit., p. 163.

2) J.G. Lorimer, op. cit., p. 45.

(٤٤) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., P. 37.

(٤٥) المصدر:

J. G. Lorimer, op. cit., P. 37

(*) كانت تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة، وهي الان جزء من المانيا الغربية وتقع في شمالها.

للحرير ستذهب بكل الارباح و«تحاشيا لأن يعود صفر اليدين، حاول التفاوض من اجل اقامة تحالف ضد الاتراك[٤٦]». وهكذا نلاحظ ان الصراع بين الفرس والاتراك قد اصبح موضع استغلال كل من هب ودب.

ثالثا ـ ان الشاه اظهر في اكثر من مناسبة ميلا للانكليز دون ان يمس بـ «مصالح» الاخرين من هولنديين وبرتغاليين حتى ان بروس وصف موقف الشاه في مستهل عهده على النحو التالي: «اجمالا، فإن الملك الجديد قد اتخذ موقفا وديا تجاه الانكليز[٤٧]». وعليه، فإن التدهور الذي شهدته تجارة شركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة، والنفوذ الانكليزي عامة، لم يكن ناجما عن مواقف سلبية للسلطات الفارسية ازاء الانكليز بقدر ما كان يعود الى ماشهدته فارس من بوادر عدم الاستقرار وانغماس ملكها في ملذاته من جهة، والى المنافسة الهولندية من جهة ثانية، والى الانكليز انفسهم من جهة ثالثة.

رابعا ـ وعلى الرغم مما قدمه الشاه للانكليز، فإن طلبه الوحيد، الذي تقدم به مابين عامي ١٦٣٢ و ١٦٣٣ اثر تهديد برتغالي بغزو هرمز، لم يلق لديهم سوى المخاتلة والمماطلة والنسيان. وبشأن ذلك الطلب يقول بروس: «ان وكلاء الشركة الانكليزية قد اضطروا الى عرض مساعدة سفن انكليزية للتعاون مع خان شيراز في حملة اعدها لطرد البرتغاليين من مسقط»[٤٨]. اما لماذا «اضطروا»؟ يعلل بروس ذلك، بأنه لم يكن لدى وكلاء الشركة من خيار اخر لاستدرار عطف الملك والخان، والا ستحل النقمة على الشركة او تتاح الفرصة للهولنديين الذين كانوا على استعداد لاغتنامها. وتجدر الاشارة الى ان هذا الطلب جاء في وقت كان فيه وكلاء الشركة يسعون الى استرضاء خان شيراز بوصفه شخصا مهما نظرا لاعتماد ميناء بندر عباس عليه مباشرة[٤٩]. اذا لم يكن هذا الوعد او العرض سوى محاولة لدفع اذى محتمل دون الاكتراث

---

(٤٦) المصدر:

P. Sykes, A History of Persia vol. 11, P. 209.

(٤٧) المصدر:

J. Bruce, op. cit., P. 303.

(٤٨) المصدر:

J. Bruce, op. cit., p. 315.

(٤٩) المصدر:

J. Bruce, op. cit, P. 315 - 322.

بشأن الايفاء به او بالأحرى مع سبق الاصرار على عدم الايفاء به.

والحق ان الاطراف الثلاثة لم تكن جادة فيما ذهبت اليه، فلا البرتغاليون قادرون على وضع تهديدهم باحتلال هرمز موضع التنفيذ، ولا الانكليز يريدون الايفاء بوعدهم للشاه، ولا الشاه مؤهل لحملة كهذه، وماكان ذلك بخاف على الانكليز، فأولى بمن يريد طرد البرتغاليين من مسقط ان يطردهم من موقعهم الوحيد بـ «كنج» في الساحل الشرقي من الخليج، فالمهمة الاخيرة أهون بكثير من الاولى. ولذا نشك في مدى جدية ذلك المشروع أساساً، تلك الحملة التي لم تر النور.

والخلاصة ان الشاه صفي قد ورث تركة ثقيلة بما في ذلك تكوينه الشخصي الذي يعد الشاه عباس مسؤولاً عنه الى حد كبير حتى عد عهده« من اتعس العهود التي عرفتها الامة الفارسية في تاريخها الحافل بالارزاء والالام[٥٠]»، الامر الذي استغله جيرانه المناؤون، اما الأوربيون الطامعون، فقد افادوا من الامرين معا.

يتبع في الاعداد القادمة

(٥٠) تاريخ الشعوب الاسلامية، بروكلمان ، ص ٥٠٥.